نزع الحجاب : تجارب الرحالة البريطانيين بمصر والعربية في القرن التاسع عشر (*)

مراجعة رضوان السيد

قدّم أولريك زون أبند لدراسته بنظرةٍ عامةٍ في ماهية الرؤية أو الرؤى لدى مختلف فئات الشعب تجاه المشرق في القرن التاسع عشر. وقد استنتج من عدة نصوصٍ في الصحافة، وأدب العامّة، وتصريحات السياسيين، وكتب المستشرقين؛ أنّ «الرؤية العلمية» للشرق وقضاياه في القرن التاسع عشر في ألمانيا وإنجلترا على الأقلّ، لم تكن تختلف كثيراً عن رؤية أو رؤى العامّة وصحافة الشارع. ومع ذلك فإنّ تقريراً لرحّالةٍ عالمٍ عن مصر، يختلف إلى حدٍّ كبير عن ملاحظاتٍ سريعةٍ لصحافيٍّ، أو انطباعات سائحٍ هاوٍ. لكن من جهة ثانية فإنّ التقارير والانطباعات عن المشاهدات، والكتب هدفُها تعريف القارىء البريطاني بالمفاهيم المألوفة لديه ـ بالشرق طبيعةً وناساً وتقاليد وعادات. لذلك فإنّ كتب الرحلة تعرِّفُنا بالكاتب وثقافته بقدر ما تعرّفنا بالموضوع الذي يتحدّث عنه.

وقد قسّم المؤلِّفُ عمله إلى قسمين اثنين: **تقارير** أولئك الذين «عاشوا» الشرق كتجربة حياةٍ أغْنَتْ ثقافتهم وشخصيتهم ـ **وتقارير** أولئك الذين اعتبروا

(*) Ulrich Erker — Sonnabend: Das Lüften des Schleiers. Die Orienterfahrung britischer Reisender in Ägypten und Arabien. Ein Beitrag zum Reisebericht des 19. Jahrhunderts. Hildesheim/ Zürich/ New York 1987. 310p.

أنفُسهم سيّاحاً نظروا الى الشرق من جوانب غرائبية، وما اعتبروه مثيراً لاهتمام قُرّائهم. وهكذا سمّى المؤلّف الفريق الأول: فريق التجارب، والفريق الثاني: فريق النَظَر. وقد مثّل في آخِر كتابه للفريق الأول بالرّحالة والسياسي البريطاني المعروف ولفريد سكاون بلنت W.S.Blunt، وللفريق الثاني بالرّحالة السائح ر.ف. بيرتون R.F.Burton. أمّا بلنت فزار المشرق للمرة الأولى؛ بما في ذلك مصر عام ١٨٧٢، لكنها لم تترك لديه انطباعاً باقياً إلّا عندما رجع إليها عام ١٨٧٥. وبمصر نشأ لديه انطباعٌ مُخيفٌ عن بؤس الفلّاحين، وضخامة الضرائب على عواتقهم بحيث اعتقد أنّ واجب بريطانيا الحضاري والإنساني أن تتدخّل لصالحهم. وقد دخل الى نجد المستقلّة، وزار أعراب أواسط الفُرات، ولاحظ ـ كما قال ـ الفرق بين العرب الأحرار الأصلاء (بنجد)، واولئك الذين «استعبدهم» التُرك وأفسدوهم وأذلّوهُم بأواسط الفرات وأسافله. وهكذا ازداد حماسه لتدخّل بريطانيّ يُنهي البؤس والعبودية بالمشرق. وقد عرض أفكاره هذه في كتابه: «مستقبل الإسلام» الذي تصوّر فيه للإسلام مستقبلاً زاهراً بالمشرق بحماية بريطانيا العُظمى. فالدولة العثمانيةُ ستسقط متهالكةً عاجزة. لكنّ الخلافة ستُعاد بمساعدة بريطانيا إلى مكّة لتصبح عربية كما كانت، وينتهي عهد القصور والخصيان والعبيد والفساد. بيد أنّ بلنت حتى في هذه المرحلة من تطوره الفكري، لم يكن استعمارياً عادياً. فهو يعتبر دور بريطانيا تجاه المسلمين دوراً حضارياً وإنسانياً، ويقول إنه من المستحيل إنقاذ المشرق عن طريق الاحتلال العسكري، فقد فعل ذلك العثمانيون فلم ينتج عن ذلك شيءٌ باقٍ. ومع ذلك، فإنّ «تدخلية بريطانية» بشكلٍ ما كانت مطلوبة لدى بلنت عام ١٨٧٦. ثم حدث الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢، وقاومه المصريون بشدة بدلاً من الترحيب به؛ فأيقظ ذلك وعياً لدى بلنت، وصار من ألدّ أعداء السيطرة العسكرية البريطانية وكبير دعاة الاستقلال الوطني المصري. وقد أصدر عام ١٨٩٥ م كتابه الشهير: **التاريخ السري** للاحتلال البريطاني لمصر ـ لكنه الى جانب إدانته الشديدة للسيطرة البريطانية كشف عن رؤيته الخاصة للمشرق ومصر. فقد قال إنه كان برفقة امرأته عندما زار مصر. وامرأته حفيدةٌ للورد

بايرون الشاعر العظيم المحبّ للحرية، والذي ساعد اليونان في نضالهم من أجل الاستقلال. فرُوْحُ الحرية، والدعوة إليها، هي التي تربطُه وامرأته بمصر. والأمْرُ نفسه يقوله عن زيارته لنجد **محجّة** الحرية **وكعبتها** العربية، الناجية من سيطرة الترك. إذ هناك تنتهي حياة التأمل العقلي، وحذلقات المثقّفين. فالبدو لا يفكّرون بالماضي ولا بالمستقبل، بل يعيشون في الحاضر وله(!).

واعتبار الحياة في الشرق مختلفةً تماماً عن الحياة في الغرب من حيث البطء والسرعة، والنشاط والكسل، والدقة المتناهية والمبالاة؛ كل ذلك يظهر عند الرّحالة السائح ر. ف. بيرتون في كتابه: «قصةٌ شخصيةٌ عن حجٍّ للمدينة ومكّة». فهو يقارن بين حياة «الكيف» العربية القائمة على القيلولة، والهدوء، والسلبية، واللامبالاة، والحياة الأوروبية المملوءة بالعمل والقلق والتوتّر والأزمات. فالشرقي «يستمتعُ بالحياة»؛ بينما يفهم الغربيُّ الحياة على أنها صراع وكفاحٌ من أجل نجاحٍ يأتي مخيِّباً للآمال، وسعادةٍ لا تأتي أبداً. ويتعدّى بيرتون هذه الملاحظات السريعة الى مقارنةٍ بين **الحضارات** أو تأمُّل في الحضارة الأوروبية في ضوء «خبرته وتجربته» بالمشرق أو في الحضارة المشرقية. يبدأ بيرتون خواطره «التأمُّليّة» في رحلته بين القاهرة والسويس عبر الصحراء. فالصحراء والسير والسُرى فيها محرِّرٌ ومطهِّرٌ من أدران الحضارة المدينية الأوروبية الوضرة. وهكذا فأوروبا هي المدينة المكروهة، والشرق هو **الصحراء** المحرِّرة. لكنّ بيرتون يُسارعُ الى الملاحظة أنه لا يريد ولا يرمي إلى رفض أوروبا على الإطلاق؛ بل إنّ **الصحراء العربية** توضّح «افتقار» الحضارة الأوروبية إلى أبعادٍ أُخرى تبيَّنَها في العربية. وفكرتُهُ هذه عن آثار الصحراء المشرقية على نفسية الغربي بوصفها عامل تطهيرٍ وتوبة؛ هي فكرةُ **بلنت** أيضاً ورحّالة وفضوليين آخرين، من البريطانيين والفرنسيين والألمان. بيد أنّ الفارق بين **بيرتون وبلنت** يكمُنُ في الظلال السياسية التي تحوط موقف كُلٍّ منهما. فالعربُ جميعاً في نظر بيرتون ينتظرون تدخلاً إنجليزياً للإنقاذ والإحياء والإنهاض. والتدخُّل في هذه المنطقة من جانب البريطانيين ضروريّ من أجل السيطرة على إفريقية وآسية. وهكذا فإنّ «أرض التطهير» هذه تصبح موضوعاً للاستعمار من جهة،

ولـلاستمتاع الـروحي والمادي من جهـةٍ أخرى. بـل إنّ الاستمتاع هنـا مـرتبطٌ بالسيطرة على موضـوعه أو مجـاله. فصـورة بلنت عن الشرق هي صورةُ البـطل المحرِّر. أمّا صورةُ بيرتون فصورةُ الرّحالة الشديد الاستقلال والمكتفي بذاته بين أوروبا والشرق.

وكان الباحث قد درس في فقرةٍ طويلةٍ لافتةٍ للانتباه التحـولات التي طرأت على مفهومي الـزمان والمكـان في القرن التـاسـع عشر مـع تـطور المـواصـلات (البحرية عـلى الخصوص)، وازديـاد علائق الـدول الغربيـة بالشرق عن طـريق الاستعمار العسكري. وقد حرص الباحث على التقليـل من التنظير، والالتصـاق الكـامل بـالنصّ؛ رغم وجود خـطةٍ دقيقة ومفصّلة في ذهنـه غيّبتهـا التفـاصيـلُ الكثيرة.